قبس من نور صاحب الهجرة

أدبني ربي فأحسن تأديبي

للأستاذ محمود الشبيني

... وأخذت القوم الحيرة المزوجة بالإعجاب من سحر ما أبان، وصدق ما أظهر. وزاد من حيرتهم وإعجابهم أنه كان أمياً ؛ فتلطف أبو بكر رضى الله عنه وقد أصابه ما أصاب القوم وأخذه ما أخذهم، وهو العالم الخبير بأنساب العرب وأخبارهم، فقال يا رسول الله : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ؛ فمن أدبك ؟

قال : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

إنها لكلمة جامعة، مركبة من كلمات قليلة فى منطق اللغة، كثيرة فى منطق العقل، تملك القدرة التى تأسر بها كل الحواس. يخيل إلىّ أن الحروف فيها ليست كالحروف ؛ فهى من مادة الروح، وهى من عنصر القلوب، ثم هى بعد ذلك كله من جوهر النور السماوى، ينزل هبةً علوية لخير من يعرف أقدار الهبات.

(أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

جماع الحكمة فى ألفاظ حكيمة، ومبعث النور فى ألفاظ من نور، وروض الأخلاق الكريمة فى حروف كريمة، نطق بها أكرم الخلق فزادت فوق سموها سمواً، لأن الرسول الكريم ترنم بها ...

يكاد المرء يلمس رحمة الله فى طياتها تتحرك، ويحس هداية الرحمن خلال كلماتها تتلألأ، وهى من سر الروحانية ؛ يخيل إليه أن رقتها سالت فجرت سيلاً من طبيعة الحياة لا التدمير، فهو ينهل من عذبها، ويرى فى ثناياها ألوان الروحانية السماوية تتألق بمعانى الهداية، وتتلألأ بأنوار الحكمة ؛ فهو يتأملها ويكاد البصر يتعلق بها فلا يبرحها

ثم هو يوشك أن يشعر بألفاظها تتحرك من سحر ما فيها، وتحيا فكأنما يلمسها ويراها، وهو لما يتأمر فيها من نُضْج الحكمة واكتمال ثمارها يكاد يلتهم أطايبها التهاماً، ثم هو لا يشبع من معانيها. ومن ذا الذى يشبع من أطايب حديث الرسول ؟

(أدبنى ربى فأحسن تأديبى)

يا له من اعتراف نبيل من أكرم الخلق بفضل بارىء الخلق ! اعتراف سلك فى الحياة مسلك الهداية، وقول نهج للناس منهج

لِمَ لا يكونُ خليفةً من بعده ... أرأيت كالصِّدِّيق أو كوفائه ؟

* * *

ما ضر غاراً باتَ يُؤوى المصطفى ... إجدابُ واديه وضيقُ فِنائه

وَدَّت بُرُوجُ النجم لو آوَيْنه ... إذ ذاك أو شاركن فى إيوائه

غارٌ على «الإيوان» جرَّ ذيوله ... عُجْبًا وتاه عليه من غُلَوائه

ما سدُّ ذى القرنين قِيسَ به ولا ... هَرَمُ الكنانة فى علوِّ بنائه

هل كان يدرى الغارُ أن نزيلَه ... سيرجُّ ركنَ الأرض بعد نجائه؟

وَيُزلزل الدنيا بعزم رَفيقه ... وثلاثةٍ كالشُّهب من خُلفائه

فإذا رجالُ الروم بعضُ عبيده ... وإذا نساء الفرس بعضُ إمائه

وَإذا بدين محمد يغزو الورى ... غزوَ الكتائب تحت ظلِّ لوائه

وإذا كتابُ محمد مُتَغَلغلٌ ... فى الكون والثَّقَلان من قُرَّائه

نجمٌ من الصحراء كان بُزوغُه ... فإذا الحواضرُ تهتدى بضيائه

اللهُ قدَّر أن يُتمَّ نورَه ... مَنْ ذا الذى يقوى على إطفائه؟

(مدرسة فؤاد الأول الثانوية) محمود غنيم

السعادة . نعم أدبه ربُّه فأحسن تأديبه ، فكان المثل العالى فى خلقه ؛ فهو الأمين طفلاً ، وهو الأمين شاباً ، وهو الأمين شيخاً . ائتمنه قومه فكان له فى الطيبات فضل سابغ ، وفى المكرمات مجد سامق . وأئتمنه ربه فاختصه بأعباء الرسالة ، فنهض بها على أكمل الوجوه ، وما اختصه بها إلا وقد طهره من كل غرض ونزهه عن كل دنس . أدبه ربه فكان أميناً ، ومن أمانته شعَّت أنوار أخلاقه . لقد أدب الرسولَ ربُّه فسمت أخلاقه ، وتبلت صفاته ، فكان أصدق الخلق حيث يقول : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) ؛ لا يقف صدق هذه الكلمة الروحانية على نبل صفات الرسول وأمانته ، وصدقه ، وسُمُوّ غايته ؛ بل إنها لصادقة فى كل تصرفاته كرجل اجتماعى . ومن ذا الذى جمع دقيق أمره وجليله مثلما جمع ؟ ومن ذا الذى ربط بين أغراضه وأغراض الإنسانية مثلما ربط ؟ ومن ذا الذى قلب الرأى قبل الفصل مثلما قلَّب ؟

من ذا الذى جرى فى أعماله وراء الضمير الطاهر مثلما جرى ؟ أفلم يبعث للعرب ولم تكن تقيدهم غير تيهاء مترامية ، فلم الشعث ، وألف القلوب ، وآخى بين النفوس ، ورأب الصدع ، ووحد الثقافة وناهيك بتوحيد الثقافة فى إنهاض الأمم ! لكم كان الرسول محقاً حين قال : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) فهو مثال المصلح الاجتماعى الذى يعلم أن إدراك الداء هو سر الدواء ، المصلح الذى يخاطب القلوب والعقول ، المصلح الذى يلابس الحياة وما يضطرب فى الحياة ، فتسوقه هذه الملابسة إلى كل مناحى الإصلاح

ولقد كان الرسول كل هذا ، وكان فوق هذا المصلح القوى الكريم الذى لا يتوبه السلطان فيبطش ، وما كان منه إلا ما يدل على قوة اليقين ، والترفع عن الأهواء ، والعفو عند المقدرة ، والنفور من الطمع . ألا إن هجرة الرسول الكريم لأعظم دليل على إدراكه لروح المجتمع ، وحسن تصرفه كمصلح سماوى ذى رأى سديد ، وفكر صائب . ما هاجر رجل وصاحبه ، وإنما هاجرت فكرة وعقيدة . وما اضطهد رجل وأنصاره وإنما اضطهدت فكرة وعقيدة . وما انتصر رجل ، وإنما انتصرت فكرة وعقيدة

ما هاجر الرسول إلا وقد عقد العزم على العودة ، ولكن بعد أن يستشعر القدرة على رياضة تلك النفوس الجامحة . ما هاجر الرسول إلا بعد أن أدرك أن من العبث نقاش عقول جامحة غطى عليها الغضب ، وران عليها الحقد ، فلا سبيل لتقويم عوجها ، وتثقيف منآدها إلا بعد أن تسكن فيها عوامل الثورة ، وتبرد جمرات التحفز . أدرك الرسول هذا فكان حكيما ، وعلم أن امتداد الزمن بينه وبينهم وابتعاد الشقة — ولو إلى حين — سيفعل فى النفوس الجامحة فعله فتتحرك الضمائر ، وتحيا القلوب . ولقد كان كل هذا ، ودارت السنون ، واجتمع للرسول العدد والعدة ، وفعلت العوامل النفسية فى القوم فعلها ، فرجع فاتحاً منتصراً ؛ ولكنه كان كريم الخلق ، جميل العفو . لقد ضرب للناس بآدابه مثلاً لو أدركوه وساروا فى هديه لعمّ العالمَ السلام ، ولصفَّقَ فى جوه الإخاء ، ولكن العالم قد فسد تأمله ، ففسدت أغراضه ، وسار أكثره وراء الطمع ، فكان ما كان من جور وطغيان ، واستسلم العالم لحروب تأتى على الأخضر واليابس

وكان الرسول كريم الخلق ، وكان المصلح الاجتماعى البصير ، وكان الخطيب الذى لا يصيبه فى اللفات عِى ، ولا يدركه فى المخوفات بُهْر ، يزن كلامه بميزان الحكمة ، وما كانت آياته السامية إلا صورة لنفسه السامية . كان خطيباً لا يبارى ؛ وكان الشجاع الذى لا يبالى المهالك

اجتمعت له النجدة والنباهة والشدة ، وكان شهماً فيه صرامة وفيه قوة لا يُطمع فى خداعه ، ولا يُغمز جانبه ؛ وكان عظيم الثقة بنفسه ، وتلك صفة الرجل الذى يعلم أن الله معه وأن الثقة بالنفس من لوازم الرسالات ، حسنت معاشرته واستقامت أغراضه ؛ وكانت له هيبة الروح وسعة الحلم ، وكرم العفو ، ورعاية الرحمن

انظر إليه وقد لقيه على غرة أحد أعدائه ، وشهر السيف على رأسه قائلاً : يا محمد ؛ من يمنعك منى ؟ فقال : (الله) ما أروعها كلمة ! نعم يمنعه الله ، ولقد منعه حقاً ، فسقط السيف من الرجل وأخذه الرسول وقال : ومن يمنعك منى ؟ فقال الرجل وقد أسقط فى يده : كن خير آخذ . فقال الرسول : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فقال : لا ، غير أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى الرسول سبيله